خطبة صلاة الجمعة 8/ 5/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(حُبُّ العطاء)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ»** [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة السادسة عشرة في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**حب العطاء**)

أيها الإخوة:

في المكتبات كتب كثيرات معنية بدراسة الأخلاق، ومن بين هذه الكتب كتاب في مجلدتين معتمد عند العلماء، ومقرر في بعض الجامعات للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، اسمه: **(الأخلاق الإسلامية وأسسها)**.

استقرأ الشيخ كثيراً من مفردات الأخلاق وأرجعها إلى أصول وكلّيات تسعة، وعن هذه التسعة تتفرع سائر الأخلاق حسب اجتهاده.

واحد من هذه الأصول التسعة: **حب العطاء**.

تحب أن تقدم نفعاً للآخرين، براً للآخرين، مالاً للآخرين، علماً للآخرين، (إنه حب العطاء).

تحب أن يرقى طلابُك، ويهنأ أولادُك، وينعمَ بالخير عمالُك، ويذهبَ الألمُ عن مرضاك، وتقدمَ العون للمراجعين لك، (إنه حب العطاء).

تدعو أن يجعل اللهُ هدايةَ الخَلقِ على يديك، وشفاءَ الخلق على يديك، وأن يجريَ قضاءَ حاجاتهم وتيسير عسير أمورهم على يديك، (إنه حب العطاء).

حب العطاء خلق عظيم ترجع إليه مجموعة فروع وسلوكيات خُلُقية محمودة، ويشمَل العطاء من المال والعطاء من العلم والمعرفة والعطاء من الجهد والنفس، ويرتقي ليصل إلى بذل الروح شهادةً في سبيل الله.

– من حب العطاء: كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله يريد أن يقدم لهم الخير ليسعدوا في الدنيا ويهنؤوا في الآخرة، وربما آذوه وشتموه فيدعو: **«اللهم اهدِ قومي فإنهم لايعلمون»**.

– من حب العطاء: خرج صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يدعوهم إلى الجنة ففعلوا به ماعلمتم من إيذاء وسخرية وتسفيه رأي، وجاءه ملك الجبال يستأذنه في أن يُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**.

– من حب العطاء: حمل أبو بكر رضي الله عنه يوماً ماله كلَّه ليقدمه لله تعالى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل عمرُ شطر ماله، وأراد سعد بن الربيع الأنصاري شَطْرَ ماله ليعطيه عبد الرحمن بن عوف المهاجري.

– من حب العطاء: تحبس أمٌ طبيبةٌ حافظةٌ للقرآن الكريم نفسَها على خدمة أولادها لتراهم بعد سنين حفظةً للقرآن الكريم، متخرجين في الجامعات، يزدادون كل يوم قرباً من الله وبراً للخلق، وترقى هي عند الله بعطائها درجات ودرجات.

– من حب العطاء: يَقْصُرُ شاب مفتوحة له أبواب الدنيا على مصراعيها يقصُر نفسه على خدمة أبيه المقعد ليجعل من نفسه خادماً عند قدمي أبيه يطعمه ويسقيه، يضاحكه ويؤانسه، تاركاً حظوظ نفسه وراء الوراء، فيرضى الوالد ويرضى برضاه ربه.

– من حب العطاء: يبقى شيوخ إقراء القرآن الكريم وشيوخ الحديث النبوي الشريف وشيوخ الفقه الإسلامي يُقرئون تلامذتهم القرآن والحديث والفقه في بيوتهم ومساجدهم، وقد جاوز الشيوخ الثمانين من العمر، وهم منشرحو الصدر، مسرورون لأنهم يعطون الآخرين.

– من حب العطاء: أن يمرض الزوج فتبقى الزوجة حبيسةَ البيت تخدُمه وترعاه وتؤانسه، ترجو رضاه ورضى الله.

وتمرض الزوجة فيبذل الزوج لها الغالي والنفيس، وتدعو دموعُ عينيه ربَّه أن يُنزِل الشفاء عليها.

– من حب العطاء: أن يفرح عاملٌ بسعادة صاحب العمل عندما يخبره بأنه كان سبباً لرد أذية عنه أو سوق رزق له، وأن يفرح صاحب عمل إن أكرم الله عامله بالزواج أو بشراء منزل أو بحصوله على رتبة علمية جديدة أو باستقلاله بعمل جديد خاص به.

– من حب العطاء: كان معلمونا يفخرون بأنهم خَرَّجوا معلمين ناجحين أمثالهم أو خيراً منهم، وكان تجارنا يفخرون أنهم درَّبوا تجاراً فاقوهم وسبقوهم، وكان شيوخنا يهنؤون لأن تلامذتهم سبقوهم في الدعوة إلى الله والتعليم.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:5-21].

روى البخاري بإسناده عن عَبْد اللَّهِ بْن مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي

حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ – لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ – فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ »

أيها الإخوة:

إني اطلعت على كثير من الاتفاقيات الدولية والإعلانات العالمية المعنية بحقوق الإنسان، فوجدتها جميعاً تتحدث عن الحقوق، حقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق الأقليات، حق الحرية والمساواة، حق التملك، حق التمتع بالجنسية، حق اللجوء والهجرة، الحق في العمل، الحق في التعلم، الحق في التعبير عن الرأي، الحق في حرية التفكير والضمير والدين، الحق في الحماية من التعذيب، الحقوق الاقتصادية والسياسية والمدنية... وهكذا منظومة حقوق تُقَدَّم للناس في محافل السياسة والإعلام والتعليم والتربية.

وبالمقابل قرأت آيات القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت منهج الإسلام والمسلمين التركيز على أداء الواجبات لا نيل الحقوق، الواجبات التي هي بذاتها حقوق الآخرين، فكل حق يقابله واجب، والإسلام يربي أتباعه على حب العطاء، بينما تربي الأنظمة الوضعية الناس على حب الأخذ.

فقد تربينا صغاراً على بر الوالدين وهو واجب الأبناء نحو آبائهم، وعلى صلة الرحم وهو واجب المرء نحو أسرته، وواجب النفقة على الزوجة والأولاد، وواجب طاعة الزوجة زوجها، وواجب دفع الزكاة، وواجب إكرام الضيف، وواجب إغاثة اللهفان، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،... وهي منظومة عطاء يربنا عليها الدِّين في مقابل منظومة أخذ.

أيها الإخوة:

لاريب أن المرء يُسَرُّ عندما يأخذ ولكنه-أقسم لكم- يَسعَدُ عندما يعطي، ولاريب أنَّ المرء يفرح عندما يُقدِّم له الآخرون الخدمة، ولكنه-أقسم لكم- يطمئن عندما يُقَدِّمُ للآخرين الخدمة.

إنَّ من يصعد على عاتق الآخرين يرقى؛ ولكن من يحمل الآخرين على كاهله –أقسم لكم- يَنقى.

وديننا أيها الإخوة، أيها الشباب أيتها الأخوات قائم على حب العطاء، وعلى حب تقديم النفع للعباد.

انتشر قبل أيام مقطع مصور عبر خدمة الواتس آب، عن شابين سوريين يمشيان في إحدى شوارع الصين، شاهدا مُسنّاً يمشي متكئاً على عُكازه، فوقفا يساعداه حتى عبر الطريق ثم مشيا معه على الرصيف، ولما وجداه متعباً من المشي مثقلاً بأوجاعه حمله أحدهما حمل الأم لولدها وأوصله حيث أراد.

صادف أن كانت إحدى وسائل الإعلام الصينية تصور أمراً في ذلك الشارع فرصدت المشهد كاملاً، وضجَّت به وسائل إعلامهم، وراحت تقابل الشابين وتتحدث عنهما وإليهما... وما درى القوم أن الإسلام يربي شبابه وأتباعه على حب العطاء.

سألت رجلاً صالحاً آتاه الله بسطة في المال والثروة عن سبب ثرائه فيما يعتقد، ففاجأني جوابه: (اللقمة التي أُحِبُّ أضعها في فم غيري)، إن الإسلام يربي شبابه وأتباعه على حب العطاء.

روي: أن عبد الله بن عباس أتى الحسن والحسين رضوان الله عليهم فقال: إن أخي وأخاكما – يريد عبيد الله بن عباس– قد أسرع في ماله إسراعاً قد خفت على نفاده، وله صبيةٌ قد خفت أن يدعهم عالةً، وقد عاتبته في ذلك مراراً، ولا أراه يقلع ولا ينزع، وأرجو أن يكون لكما مطيعاً، وإن قولكما عنده مقبولٌ، فلو عاتبتماه؟ فقالا: نفعل، فصارا إليه، فلما دخلا وجداه يطعم الناس، وإذا جزرٌ تنحر. فقال أحدهما لصاحبه: هذا بعض ما شكاه عبد الله. ثم صارا إليه، فاستقبلهما وأسهل لهما عن فراشه، ولقيهما بالإجلال والإعظام.

وقالا: أتيناك في حاجةٍ. فقال: الحوائج بعد الغداء، قالا: فهاته، فلما طعما وفرغا سألهما عن حاجتهما؟ فقالا: إن أخانا وأخاك عبد الله أتانا فسألنا معاتبتك على إسرافك في مالك، وقد رأينا بعض ما شكا، ولك بنون، ولسنا نأمن عليهم الضيعة بعدك. فقال: ما لقولكما عندي مردٌّ، ولا لي عما تأمراني به مدفع، لكنّي أخبركما بقصّتي، وأردّ الأمر إليكما، فما أمرتماني به أتيته، وما نهيتماني عنه وقفت عنده. فقالا: هات.

فقال: إن الله تبارك وتعالى عودني عادة جميلة، فعودتها عباده، ولست آمن إن قطعت عادتي عن عباده أن يقطع عادته عني.

فقالا: لا نأمرك في هذا بشيءٍ. وقاما فانصرفا حامدين لأمره.

هوَ البحرُ مِن أيِّ النواحِي أتَيته ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ

تعوَّدَ بَسطَ الكفِّ حتى لو أنه ... أرادَ انقباضاً لم تُطِعْهُ أنامِله

ولو لم يكنْ في كفهِ غيرُ نفسه لجادَ بها فليتق الله سائِله

إن الإسلام يربي شبابه وأتباعه على حب العطاء.

أيها الإخوة:

حب العطاء خلق نبيل تجتمع عنده خصال حميدات وأخلاق فاضلات، فأعطوا الخير من أنفسكم وقدموا النفع لمن استطعتم، وبروا آباءكم وأبناءكم، وصلوا أرحامكم وجيرانكم، ومروا بالخير، وألقوا السلام على من عرفتم ومن لم تعرفوا، فإن الله خلق خَلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون حوائج الناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

هذا، ومن أراد منكم أن ينمي خلق حب العطاء عنده فعليه بذكر الله وصحبة أهل الله ومجاهدة النفس ولزوم مجالس العلم، وبيانها في خطبة الأسبوع القادم بإذن الله.

والحمد لله رب العالمين